

## الفصل التاسع والخمسون

### إلياس صالح

وُلد في بيروت، وتلقى العلم في المدرسة الكلية السورية الأميركية، فنبغ في اللغة العربية وأدائها، وكان منذ حداثة متوقد الذهن ذكياً فطناً، ومن غريب قريحته أنه جمع بين الشعر والإنشاء، ويندر أن يتفق ذلك لواحد.

نال شهادة البكلورية من المدرسة الكلية سنة ١٨٨٨م، وكان قد اشتهر بين البيروتيين بقريحته السيالة في الشعر، وسلامة ذوقه في الإنشاء، فاستقدمته إدارة المقطم فتولى التحرير فيها حتى توفاه الله في ريعان الشباب، ولو فسح في أجله لأتى بمعجزات البيان؛ لأنه كان على صغر سنه من نوابغ الشعراء وعمدة الكتاب، حتى طار صيته في القطرين، وكان كاتباً أديباً تسيل عباراته سهولة، وتمتزج معانيه بالنفوس رقة، قلَّ أن يهفو هفوة يؤخذ عليها، متضلّعاً بقواعد اللغة، لو سألته عن أي شاردة من شواردها لأجابك فوراً وأورد لك مثلاً أو أمثلة، وكان إنشأؤه عربياً فصيحاً خالصاً من صبغة العجمة، مع كثرة اشتغاله ومطالغته باللغات الأجنبية، وكان قابضاً على ناصية الألفاظ، عارفاً اشتقاقاتها ومواقعها وأظلال معانيها، فلا تسأله عن لفظ إلا أورد لك سائر اشتقاقاته ومعانيه، وأشار بأصبعه إلى موضع كل منها في الصفحة من القاموس. وكان شاعراً مطبوعاً، يمتاز شعره مع الرقة والفصاحة بالسهولة والطلاوة، لا يخلو له بيت من نكتة تدل على الذكاء والظرف، وقد نظم على صغر سنه واشتغاله عن الشعر قصائد رنانة ومقاطع جرت مجرى الأمثال.

وكان مع ذلك سريع الخاطر فطناً، لا تكاد تبدأ بحديثك حتى يدرك مرادك منه، ولا تخفاه خفية من مكنونات معانيك حتى يخال لك أنه ينطق بلسانك ويعبر عن جنائك، وكان حلو الحديث، حسن المعاشرة، لا يخلو مجلسه من المطارحة أو المذاكرة



إلياس صالح ١٨٧٠-١٨٩٥ م.

أو المباحثة في ما يخلو الخوض فيه من المواضيع الأدبية أو العلمية أو السياسية، وإذا ناظرته في أمر أنست منه آراء قويمة وأفكارًا أكثرًا في جانب الإصابة.

وكان أديبًا عفيفًا يتحدث بعفته واعتداله سائر أصدقائه وخلانه، ما يصح أن يكون قدوة لشبان هذا العصر، ويندر أن نرى على مثاله بينهم.

وكان يعرف اللغة الإنكليزية معرفة جيدة؛ ترجمة وكتابة، ويحسن الفرنسية، وكثيراً ما عرّب قصائد إنكليزية فنظمها في العربية، لا يشك قارئها أنها نظمت في العربية رأساً، وترجم جانباً من رواية الأميرة المصرية، درج شيء منه في مجلة اللطائف قبل مرضه، وفيها ما يدل على تمكّنه من الإنكليزية مع اقتداره على نقل معانيها إلى عبارة عربية فصيحة لا يشتم منها رائحة التعريب.

وكان كبير النفس عزيزها، ممتليء القلب أنفة ونزاهة، لا يفتر لحظة عن الاهتمام بمستقبله، وقد بالغ في ذلك حتى أودى به إلى تعب الجسم ونحول البدن، فلما جاءه المرض لم يستطع إلى دفعه سبيلاً، ففضى ونفسه شاخصة إلى المعالي، وآماله لا تزال عالقة بنيل الأمانى إلى آخر نسمة من حياته.

وأما آثاره، فإن الأجل لم يفسح له إلا قليلاً، ومع ذلك فإن من منظوماته ما تناقلته الألسنة، وأعجب به رجال الأدب، وأكثره منشور في جريدة المقطم، ومنه ما يتناقله زملاؤه في المدرسة في محفوظهم، ولم نوفق إلى جمع شيء يستحق النشر في كتاب على حدة، فنأتي بأمثلة منها دلالة على منزلته من عالم الشعر.

قال من قصيدة فلسفية في «الحرية»، ودّع بها المدرسة الكلية عند نيل شهادتها:

<p>واعتزل ذكر زينب وأميَّة في ربوع الإسلام والجاهليه عن سليمي وعن سعاد غنيه من خلال اللواظ النرجسيه حرب بدر على القلوب الشقيه فأنا قيس هذه العامريه ومعي فيه حجة شرعيه (عرض حال) للأعين التركيّه في ليالي تلك الشعور الدجيه فنسينا المسكينه الحريه يمتطيها مهما تكن دنيويه من جميع المناقب الأدبيه كبح تلك المطالب الجسديه قاومتك الطبيعة البشريه يمتطيه من الأمور الدنيه يفعل الأمر عن رضى ورويه أعليها في ذاك مسؤوليه وندمت الندامة الكسعيه من أصح الأدلة العقليه أثبتته الشرائع المبدنيه ولك العلم فيه والأسبقيه أنت حر وهذه أوليه</p>	<p>خلُّ عنك الوقوف في دار ميَّة رحم الله كل من قال شعراً إنما دارنا بمن شرفوها بل هي الروض فتح الزهر فيه وأقامت فيه خدود العذارى لا تلمني يا عاذلي بهواها وعلام الملام والقلب قلبي فإذا كنت تدعيه فقدم وخبطنا العشواء لوكنت تدري واتخذنا سلاسل الشعر قيِّداً وزعمنا الإنسان ذا شهوات وهو زعم إن صح فالمرء خلق أفلا تستطيع إن جعت قل لي أنت حر فتستطيع ومهما ولكون الانسان يسأل عما شاهد أنه مدى الدهر حر هب أدرت الإدارة أنت فأخطت كم تلظيت إذ أسأت صنيغاً إن في (ليتني فعلت) دليلاً أنكر الناس ذاك قبلاً ولكن أنت حر يا أيها المرء فاعلم أنت حر فاعلم بهذا وعلم</p>
---	--

لست عبداً إن كنت تحت نظام لا وليس النظام ذا أوليه  
أنت فوق النظام إن تتبعه ولأنت الذي وضعت الوصيه  
يتمنى الإنسان لو كان عبداً ويقوم الأدلة العلميه  
ولكم قد رأيت من حيوان يقضم الحبل بغية الحريه  
يا بني أمانا ذوي الفضل بل يا معشر الناطقين بالعربيه  
لست عبداً أنا ولا أنت مولى أيها اللابس الحلبي الذهبيه  
هكذا الناس أيها الناس طراً ما لزيد على عبيد مزيه

وساق الكلام إلى وصف الفراق وفراق التلامذة والأسانذة فقال:

لست ممن يقوى عليه فرفقاً بالمعنى يا ساكني الكليه  
كيف تلقون في لظى الوجد نفسي وأنا صالح ونفسي بريه  
يا بدوراً راموا التبعاد عني وأمطوا للفراق أي مطيه  
أفلا تجذب البذور بحوراً ها دموعي فأين ذي الجاذبيه  
إن دراً أودعتموه بإذني صهرته حرارتي القلبيه  
وستذريه مقلتاي عقيقاً فترون الغرائب الكيميه

وقال يهنئ صاحبي المقتطف برتبة الدكتوريه، وكان قد سافر إلى بيروت فبدأ بوصف السفينه واستطرد إلى المدح، قال:

تلك السفينه باسم الله مجراها على دموعي مسراها ومرساها  
تجري وفي قلبها النيران موقدة مثلي كأن هوى الأوطان أشجاها  
سكرى تميد بمن فيها فتسكروهم وهماً فكيف إذا ذاقوا حما ياهها  
وليس بدع إذا سارت بنا مرحاً فتلك جارية يهتز عطفاهها  
هيفاء لكنها بالقار قد خضبت كالخود يخضب بالحناء كفاها  
سلطانة البحر إذ ترسو يحيط بها من القوارب جند من رعاياها  
وإن سرت نشرت أعلامها وشدا صوت البخار لها والموج حياها  
طوراً ترى في قرار اليم غائصة وتارة فوق هام السحب تلقاها

لم أنس ليلة بتنا والرفاق بما  
 وحولنا الماء من كل الجهات ولا  
 تزجي الركاب إلى أرض الشأم وفي  
 أنتم منى النفس لا زالت تطيب بكم  
 سعى إليكم بنا فضل لكم شهدت  
 وشهرة بين أهل الأرض طائفة  
 ورغبة في اقتباس العلم غالية  
 يا بهجة الشرق حسب الشرق أنكما  
 أحييتما العلم فيه بعد أن درست  
 شهادة لم ينلها غير ذي خطر  
 لأنتما توأماها دون غيركما  
 فلتهنأ وهي فلتهنأ ونحن بما  
 نرعى النجوم ولو شئنا مسسناها  
 شيء سوى الماء يغشانا ويغشاها  
 مصر لنا حاجة هيهات ننساها  
 نفس الصباح وتلقى نجح مسعاها  
 به البرية أقصاها وأدناها  
 يردد الصحب والأعداء نكراها  
 لم نهجر الأهل والأوطان لولاها  
 من بعض أبنائه بين الورى جاها  
 معالم الدرس والإهمال أفناها  
 قد نال من درجات الفضل أسماها  
 وأنتما أنتما في الشرق صنواها  
 حزنا وحازت وحزمت واشكروا الله

وقال يصف جسر قصر النيل بالقاهرة، وفيه إشارة إلى دورانه في أثناء فتحه:

جسر قصر النيل المبارك جسراً  
 ثابت كالزمان هيهات يفنى  
 قصرت في الفخام عنه الجسور  
 وهو أيضاً مثل الزمان يدور

وله في نظم التواريخ أبيات لم نر مثلها في ما نظمه الشعراء، من ذلك تاريخ نظمه  
 تقریظاً لكتابتنا تاريخ مصر الحديث عند صدوره سنة ١٣٠٨هـ، يكاد يكون معجزة  
 من معجزات النظم، وهو قوله بعد وصف الكتاب نثرًا:

وبالاختصار فقد حوى ووعى  
 فيرى الحكيم له به عظة  
 ما لم يكن في الكتب منسوخا  
 ويرى الجهول كذاك توبيخا  
 ويرى المطالع فيه تفكهة  
 ويرى المؤرخ فيه تاريخا

تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر (الجزء الثاني)

وأخر ما نظمه قبل مرضه بيتان، كتبهما إلى خطيبته على بطاقة، وفيهما إشارة إلى ساعة أهداها إليها، وهما:

يا من دعاني حبه فأجبتَه      سمعًا لما تدعو إليه وطاعه  
تفديك روحي إن حبك راسخ      فيها قديمًا قبل هذي الساعه

وبيتان آخران كتبهما إليها، وقد أهداها حليًا مرصعًا على شكل طائر يجعل في أعلى الصدر، وهما:

إليك حبيب القلب مني هدية      تزيدك في عيني محاسنها حسنا  
أنتك وقد حنت إليك صباية      ولا عجب للطير أن يعشق الغصنا

ومن النكات الشعرية قوله في نحوية:

ونحوية ساءلتها أعربي لنا      حبيبي عليه الحب قد جار واعتدى  
فقالته حبيبي مبتدًا في كلامهم      فقلت لها ضميمه إن كان مبتدا

وقوله:

قد رمانى بالصد والهجر عمدًا      ولحانني إذ ملت للسسلوان  
ما رأى نفسه فلا تعذلوه      لا ترى العين نفسها بل تراني

وأخر ما نظمه بعد مرضه، وقد ثقلت عليه وطأة الحمى، بيتان قالهما في وصفها وكانت تشتد عليه ليلاً:

إذا جنَّ الظلام وغاب صحبي      وفارقني أحبائي وناسي  
أنت تسعى إليّ وليس ترضى      مقامًا غير أحشائي وراسي